تحت الجسر المعلّق

قصة بقلم عثمان سعدي

شيدت مدينة قسنطينة على جبل صخري ، يطوقه في ضراوة « وادي الرمال » الذي شق ـ بين صخوره الصلبة ـ أخدودا يصل عمقه الى خمسمئة متر ، يفصل « حي لامي » وسطحة المنصورة عن المدينة . وأروع ما في وادي الرمال الجسر المعلق فوقه ، الذي يتحدى الطبيعة ، ويصل المستشفى بالمدينة ، والمصعد الذي نحت طريقه في صخور صلبة ليربط المدينة التي تقع في أعلى قمة بالوادي ، بطريق الحامة التي تقع في أسفل نقطة منه .

كانت أجمل نزهة عندي ـ ايام الطفولة ـ ان اخرج مع زملائي يوم « الاحد » الى « حمام سيدي مسيد » فنقطع جسر باب القنطرة ، ونسير في طريق سكيكدة ، وكنا نقضي الساعات في مكان على جانب الطريق يقع تحت الجسر المعلق ، لنشاهد مدينتنا الجليلة فوق رؤوسنا ، ولنتامل تقاسيمها الخشنة ، فنرى ثكنة القصبة الجائية بقلاعها الرومانية ومن تحتها جدران الوادي التي أقامتها يد الطبيعة من كتل صخرية ضخمة بعد ان روضتها ، وقضت على نفورها ، وتركت فيها آثار سياطها ، شبيهة بندبات غائرة في جسد عملاق من عبيد القرون الوسطى . ونرى الجسر المعلق المشدود الى رأسي الوادي المتقابلين بحبال حديدية سوداء جبارة ، تذكرني ـ دائما ـ بحبال ملائكة الاسطورة القديمة المكلفين بجر الشمس من مشرقها الى مغربها . وكانت عقولنا الصغيرة تبحث في رصيد معلوماتنا البسيطة عن شيء يشبه جسرنا الجبار ، فلم نجد أحسن من سفن القراصنة الشراعية ذات الرقاب الزرافية التي كثيرا ما شاهدناها مرسومة في كتب المطالعة ، فزرقة السماء المحيطة بالجسر ، وزرقة البحر المطوقة للسفينة ، وعمق اللونين متعانقين كانت كلها تثير في نفوسنا الصغيرة خيالات جميلة ...

كنا نشاهد تدفق مياه « الرمال » في شلال صغير تحت أقدامنا ، ونصغي الى هديره المختلط بدمدمات السيارات والعربات على جسرنا فوق رؤوسنا ، فتنطبع على مشاعرنا اصوات متنافرة لا رابطة بينها : أصوات طبيعية صادرة عن الشلال ، واصوات اصطناعية صادرة عن الجسر .

ونلتفت الى جانب الوادي الذي يخترقه « المصعد الكهربائي » من أعلى الى اسفل ، فنشاهد مرور المصعد في لمح البصر من بين تلك الفتحات الضيقة التي نحتت لتضيء أخدوده المظلم ، وتراقب نزوله بمروره على هذه الفتحات ، الى ان يمر على أسفل فتحة ، فننتظر قليلا ، ثم نشاهد ركابه خارجين من بوابة النفق ، الذي يصل محطة المصعد بقاع الوادي وهم يتحركون في أحجام صغيرة لا تزيد عن أحجام الذباب .

وكانت هذه المناظر التي نعيشها في كل يوم ، تثير في نفوسنا اعجابا يشوبه نوع من الاحترام والاجلال لمدينتنا ، وتثير في مخيلتنا تلك القصص البطولية التي كنا نسمعها : قصة « عمار المنفي » الذي نفته سلطات المدينة لما اشتهر عنه من اتجاره بالرقيق الابيض ، وقصة « صالح الموسي » الذي قتل شرطيا في رحبة الجمال ، و « احمد الغول » الذي رمى فرنسيا من الجسر .. وغيرهم.. وبالرغم من مطاردة السلطات لهؤلاء فانهم يدخلون المدينة ويتجولون في شوارعها ، ويتصلون باصدقائهم بل وان رجال الشرطة يلتقون بهم أحيانا وجها لوجه ، ولا يجرؤون على ايقافهم ، لعل الجانب الذي أثار اعجابنا في شخصيات هؤلاء المطاردين، تحديهم للشرطة التي نشأنا على مقتها .

كان نقاشنا كثيرا ما يدور حول الطرق التي يسلكها هؤلاء المطاردون للدخول الى المدينة : أهو طريق الحامه الذي يدور غربي المدينة حيث ينهي الى باب الواد ، أم هو طريق سكيكدة الذي يسلمهم الى نفق السكة الحديدية المؤدي الى باب القنطرة ، ام هو ذلك الطريق الضيق الحلزوني الذي يتسلق جانب الوادي الشرقي ويوصل الى مكان قرب جسر سيدي راشد .

كان أمتع يوم نقضيه ، هو اليوم الذي ننتحل أثناءه اسماء هؤلاء المطاردين ، ونسير في هذه الطرق التي سلمنا بانهم يسلكونها ، ونقلد حركاتهم ومشيتهم وطريقتهم في الكلام ، حتى ندخل المدينة ، وذات مرة بينما نحن نتسلل الى المدينة عن طريق باب الواد ، شاهدنا شرطيا يقف من رأس السلالم فاستولى علينا الموقف التمثيلي ، وتاجمناه بالحجارة ، فاستنجد برفيق له كان يقف امام سوق الخضار ، ثم قبضا علينا ... وبما ان سننا كانت لا تسمح بادخالنا الى السجن فقد اكتفيا باشباعنا لكما وركلا، ثم اطلقا سراحنا بعد ان سجلا اسماءنا واسماء آبائنا وعناوينهم.

وبعد ثلاثة ايام وصل اخطار الى أبي عن مركز الشرطة ، يدعوه الى المثول ـ خلال أربع وعشرين ساعة ـ امام مأمور مركز رحبة الصوف ، وصلى ابي صلاة العصر ، ثم رفع يديه وهو يتمتم بالفاتحة والادعية ، وكانت والدتي تراقبه من بعيد وتقاسيم وجهها الشاحب تعلوها مسحة من التاثر ، ثم سلم وخرج . ولم يرجع الا بعد صلاة العشاء ، وحالما تجاوز عتبة المنزل دعاني بصوت ارتجت له أرجاء حوشنا، ولما مثلت امامه واجهني بصوته الجهوري :

ـ كيف تعتدي على الشرطي .. يا ابن الكلب ؟! الا تعلم ان سلطة البوليس لا تحد في بلدنا ، واذا كان البريء لم ينج من شرهم فكيف بالمعتدي عليهم ؟

وحاولت ان انكر ، الا ان نظرات ابي الحادة نفذت الى اعماقي ، فلم يسعني الا الاعتراف بالجرم وطلب المغفرة . لكن أبي الذي تعود ان يسد اذنيه امام اي اعتذار يصدر من ابنائه ، دفعني الى الغرفة واغلق بابها من الداخل بالمفتاح ، ثم هوى علي بعصاه الغليظة ...

*

حصلت على الشهادة الابتدائية الفرنسية ، ودخلت الثانوية .. ولم يمض علي شهران حتى اشتبكت مع استاذ الجغرافية الفرنسي حول الاكذوبة الكبرى « الجزائر جزء من فرنسا » واتهمته بتزييف الحقيقة. وصدر قرار من ادارة المدرسة بفصلي ، وحاول ابي ارجاعي ولكن محاولاته

بات بالفشل ، ولان التلميذ العربي اذا فصل فليس لولي امره حق المطالبة باجراء تحقيق في أسباب الفصل .

ثم تتالت الحوادث ، فمات ابي، واستجابت امي لرغبة شقيقتي«زهره» في الاقامة معها ، ومساعدتها في رعاية اطفالها الخمسة . وهكذا خلا لي الجو واصبحت كمئات الالاف من الشبان في بلدنا الذين اشرفوا على سن يبني الشاب فيها مستقبله ويقرر مصير عمره ، دون تمكنهم من الحصول على ابسط الوسائل لبناء هذا المستقبل ولتقرير مصير هذا العمر : الابواب كلها مسدودة ، مئات الالاف من السواعد القوية والطاقات الشابة هائمة في خضم البطالة الواسع .. وابت علي رجولتي ان الجأ الى شقيقتي ، واعيش من عرق زوجها ، وازاحم اطفالها الصغار في خبزهم اليومي.

وسدت في وجهي كل الابواب ، واظلمت الدنيا في عيني ، فهرعت الى الخمر الرخيص ادفن فيه همومي ، وفي يوم من الايام بينما كنت خارجا من سينما (نينيز) التقيت برفيق الطفولة « مصطفى » بعد اربع سنوات لم اقابله خلالها ، انه مصطفى بلحمه ودمه ، لم يطرأ عليه أي تغيير ، عدا مسحة من القسوة علت ملامح وجهه ، وشعيرات بيضاء انتشرت في رأسه :

ــ شبت يا مصطفى !!

ــ الحياة تشيب الاطفال يا علي ... كيف حال ابيك ؟

دار الأندلس للطباعة والنشر

تعتز بأن تقدم لقراء العربية الطبعة الجديدة الفاخرة لمؤلفات

جبران خليل جبران

الكتب التي ترجمت إلى جميع لغات الأرض ، وافاضت على قرائها في نواحي المعمور سحر الشرق ، وعبقرية العرب .

١ البدائع والطرائف ٦ النبي

٢ الاجنحة المتكسرة ٧ المجنون

٣ الأرواح المتمردة ٨ المواكب

٤ عرائس المروج ٩ العواصف

٥ دمعة وابتسامة ١٠ رمل وزبد

١١ يسوع ابن الانسان

تطلب هذه الكتب من المكتبات الكبرى في العالم العربي

ومن دار الاندلس للطباعة والنشر

بيروت - شارع سوريا - ص.ب [illegible]

ــ رحمه الله ... قل لي متى خرجت من السجن ؟

ــ منذ ثلاثة أيام فقط .

قالها وهو يرفع سبابته الى اعلى ، ويدير حولها سلسلة صفراء على شكل ثعبان .. ان مصطفى اتهم بالمشاركة في السطو على خزينة « سينما الكوليزيه » وحكمت عليه المحكمة بثلاث سنوات سجنا ..

وقبض مصطفى علي كتفي وهو يقول ، والضحكة العالية تقطع كلماته:

ــ انك قوي يا علي .. الا زلت تذكر حادث الشرطي ؟

ــ نعم .. انه من الحوادث التي لا تمحى من ذاكرة الانسان بسهولة .

ــ ما رأيك في سهرة حمراء يا علول ؟.. المقابلة على الساعة الثانية مساء في مقهى الشرق برحبة الجمال .. وهناك نقرر المكان المقصود .

منذ هذه الليلة فتح لي مصطفى نافذة على عالم كنت اسمع به سماعا ، وكانت نفسي تتحرق شوقا الى ممارسة الحياة فيه عن كثب...

لقد كنت اتردد على « باب الجابيا » كما يتردد عليه أي شاب لاشباع الجانب الحيواني في جسمه ، كان هذا الحي ــ قبل اليوم ــ يتساوى عندي مع تدخين لفافة تبغ . وكنت كلما دخلت منعطفا من منعطفاته ، وتواريت عن الابصار مع احدى مومساته اتساءل : « هل هذه المومس الماثلة امامي واقعة تحت تأثير ارادة شاب من هؤلاء الشبان الذين كثيرا ما سمعت عنهم قصصا خيالية ؟ هل من المعقول ان تبيع هذه المسكينة لحمها طوال اسبوع لتسلم كل ما جمعته ــ في ليلة واحدة ــ الى فتاها ؟ اتسلمه عن طيب خاطر ، ام مرغمة ؟»

اما بعد تلك الليلة ، فقد اصبحت احد هؤلاء . لقد خلق مني مصطفى « شيكورا » محترفا ، وقضيت اربع سنوات ، كنت أثناءها ضائعا بين احياء البغاء ، وزجاجات الخمر : خسرت رباعيتين ، واصبت بخنجر في وجهي لا زال اثره الى الان ممتدا من الاذني اليسرى الى ذقني.

انني كلما استعرضت الان ليلة من ليالي تلك السنوات الاربع دفنت وجهي في كفي خجلا ...

*

في أمسية من امسيات ربيع سنة ١٩٥٥ احسست بضيق فتركت المنزل ، وركبت ترام حي لامي ، في الساعة الرابعة . ونزلت قرب محطة السكة الحديدية ، ثم اتجهت نحو السلالم المؤدية الى « المنصورة » . رحت ادفع ساقي باذلا مجهودا كبيرا للتغلب على هذه العقبة ، وبين آونة واخرى كنت اقف قليلا لاسترد انفاسي واملأ رئتي من الهواء النقي ، واتامل هذه الخمائل الكثيفة ذات الاغصان المتشابكة التي الفت يد الطبيعة بين الوان زهورها المختلفة ، واوراق اشجارها المتنوعة ، واغصانها المتشابكة التي لم تتطرق اليها يد مشجب ، فامتدت وتراجع بعضها الى الوراء ، وسلك البعض الاخر اتجاها معاكسا دون ان تخلو كلها من الانحرافات .

ولم يكن يسترعي انتباهي في هذه الخمائل زهرة من ازهارها او غصن من اغصانها ، وانما صورتها العامة المكونة من الازهار بالوانها المتنوعة ، والاوراق بانواعها المتعددة ، والاغصان بتشابكها ، ولون السماء الازرق كل هذه الاشياء متعانقة ممتزجة متفاعلة هي التي كانت تثير في نفسي احساسا بالاجلال امام الطبيعة ، وكان احد اساتذتي يقول لي دائما : «انك خشن يا علي حتى في تذوقك للجمال .»

وعندما امر على نقطة مشرفة على الوادي كنت التفت الى الوراء ، لاشاهد منظر مدينتي الرائعة ، فتتجاوز عيناي « حين منظر جميل » ، والقصبة والرنبلي والسويقه لتلتصق بنقط معينة في هيكل مدينتي

العملاق : بالجسر المعلق ، بنتوءات صخور حافة اخدود وادي الرمال ، بابراج مصعد المحطة التي أقيمت عل كتل صخرية ... حقا لقد صدق استاذي .. ولعل السبب في طبيعتي الخشنة ، وحبي لكل ما هو طبيعي لم تدخله يد صانع، راجع الى بيئتي ، الى مدينتي التي يوحي لي كل منظر من مناظرها بالخشونة او بالجمال الطبيعي غير المرتب .

والتقيت بزوجة الضابط الفرنسي المظلي ممتطية صهوة جواد اصهب، وجنديان سينغاليان يحرسانها . والتصقت عيناي برشاشتيهما ، وتذكرت بسرعة كيف حاولت ان اغثر على واحد من هؤلاء الثوار الذين كثيرا ما هزوا شوارع مدينتي بطلقاتهم وانفجارات قنابلهم ، وكيف فشلت كل محاولاتي.

وصحوت من انطلاقتي على خطوات سريعة ثابتة تتعقبني ، فالتفت وأنا أتصورها خطوات جندي فرنسي ارتاب في امري ، وجاء ليتحرى عن شخصيتي . ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدتني وجها لوجه امام صديقي مصطفى ، ولم اتمالك نفسي فصحت :

ـ من أين نزلت يا مصطفى ؟

وشد على يدي وهو يقول :

ـ قضيت طيلة هذه الايام عند شقيقتي بالحامة ، انت تعرف ان(الخاوه) حرموا علينا احتساء الخمر ، فلم يعد لحياة المدينة مذاق في فمي .

كان مصطفى ـ منذ ثلاثة اشهر ـ يختفي بين آونة واخرى ، ثم يظهر ليختفي مرة اخرى .. وجس ذراعي بشدة وضحك ضحكته العالية التي لا زالت ملازمة له ، ثم قال :

ـ الا تستطيع ان تذهب بنا الى مكان امين ، نتناول فيه جرعة ويسكي؟. انني اشتعل شوقا الى جرعة واحدة ...

ـ هل تسخر مني يا مصطفى ؟

ـ بل أنا جاد كل الجد ...

ـ اولا : أنت تعلم ان اي مكان في الجزائر يقع تحت رحمة نظرات الفدائيين النفاذة . ثانيا : انني ارى انه من النذالة الا نساهم في النضال حتى بابسط الوسائل كتلبية نداء من يهدد الموت حياتهم في كل لحظة من اجل مستقبلنا ...

وتفحص مصطفى في وجهي بنظراته الساخرة ، وقهقه ثم قال وهو يلكمني على صدري :

ـ اهلا وسهلا بالوطني الكبير .. هل ترغب في الانضمام الى الجماعة؟!

ـ ارغب فقط ... سامحك الله ، لقد راودتني مرارا فكرة ، وهي ان ألقي بنفسي من فوق الجسر المعلق ، بعد فشل كل محاولاتي في الانضمام .

ـ لا .. لا .. انا اريد الا تنتحر قبل ان نقضي سهرة هذه الليلة .. سهرة بريئة ـ طبعا ـ نحتسي فيها اكواب اللبن والعصير..

ثم انحدر مصطفى يقطع ادراج السلالم في خفة مدهشة ، وهو يرفع يده الى جبهته ، ويقول :

ـ الى اللقاء في الكوليزيه ، على الساعة الثامنة .

خرجت قبل الموعد بنصف ساعة الى ساحة الثغرة ، المطلة على الهضاب الغربية ... وساحة الثغرة مكان يلتقي عنده العشاق كل مساء : من الفرنسيين واليهود طبعا ..

كان الجو منعشا والسماء صافية ، واشعة المصابيح الضخمة المكورة مسلطة على وجوه فتيات فرنسيات واسرائيليات ، وهن يلعقن بالسنتهن كرات الثلج الملون ، وكل ما فيهن يدل على ان وسائل الحياة السعيدة متوفرة لديهن . وتقطع بين الآونة والاخرى صمت ليل الساحة قهقهة او قهقهات من حناجر عابثة . وكم وقفت امام هذه الوجوه المحتقنة بالدماء ، وضغطت على أسناني بعصبية ، وقلت في نفسي : « يخيل الي ان حمرة وجناتهن مستمدة من دماء عشرات الجزائريات .. ان هذه القهقهات الصادرة من حناجرهن لهي خلاصة سعادة شعب » وارتسم امامي وجه عمتي « زهور » الشاحب المصفر ، التي شابت وهي لم تتجاوز الثلاثين .. ووجه جارتنا الارملة (عيوشه) التي كافحت كثيرا من اجل اطفالها الخمسة ، ثم ماتت بسل الرئة صبيحة يوم شتاء بارد يكسوها ضباب كثيف .. نعم ان هذه الحمرة التي تعلو وجوه هؤلاء الفرنسيات لهي دم عمتي (زهور) ، وجارتنا (عيوشه) وغيرهما ....

وتقدمت خطوات الى سور الساحة المطل على طريق الحامة ، وبدت لي هياكل الهضاب الخضراء المغمورة بأشعة القمر .. أشبه شيء بهياكل عمالقة متكيء بعضهم على بعض ، ملفوفين برداء فضي... وانطلق مني الخيال وراء هذه الهضاب حيث ترقب عيون نسور ... ترقب الفد الباسم بثقة ، وتصنع بسواعدها السمراء اروع ثورة في تاريخ الامة العربية .. ثم ابتسمت لتلك الفكرة التي طالما حامت حولي كلما فكرت في « الثورة » ، وهي مقارنة حالي قبل خمسة اشهر ، بحالي اليوم ، والتغير الذي طرأ على شخصيتي . كان تفكيري ـ قبل هذه الاشهر ـ لا يتجاوز النطاق الذي تحده رحبة الجمال ، وقنطرة سيدي راشد ... اما بعد ذلك فقد اصبحت لا افكر الا في الجبال ، والثورة ، والفدائيين والاستعمار والاستقلال ... حقا لقد صدق ذلك المنشور الثوري الذي قرأته منذ يومين ، في قوله : « ان اول نوفمبر ١٩٥٤ يعتبر تاريخ ميلاد كل جزائري وجزائرية ».

وصحوت من هذه الانطلاقة على يد جندي فرنسي ، من هؤلاء الجنود الذين يحيطون بالساحة ـ منذ اول نوفمبر ـ احاطة السوار بالمعصم ، وتفحص في وجهي الجندي الفرنسي بعينين زرقاوين ، ثم قال :

ـ يبدو ان موضوعا هاما يشغل بالك ؟

ـ لا ... أبدا ... ان بالي مشغول بمنظر هذه الهضاب السابحة في ضوء القمر اللجي !!

ـ آها ... يبدو انك شاعر !

ثم راح هذا الجندي القادم منذ شهر واحد من فرنسا ، يثرثر ، ويروي لي ذكرياتها في باريز ، وكيف كان يقبل على شعر لامارتين وبودلير .... ويبدو ان مصطفى الذي لمحته متجها نحوي هو الذي سينقذني من ثرثرة هذا الجندي . وتقدم نحونا وهو يقول في لهجته الساخرة :

ـ يبدو انك ستنخرط في الجيش الفرنسي لتطارد (الفلاقا) يا علي.

ثم حيا الجندي الفرنسي وهو يرمقه بنظرات حادة ، لم أعهدها في عيني رفيقي من قبل ..

وتركنا الجندي الفرنسي ثم اتجهنا نحو الكوليزيه . فقال لي مصطفى :

ـ يا خبيث ! يبدو ان حسان ساحة العشاق جذبتك وانسيتك موعدنا

ـ لا تخلط الجد بالهزل يا مصطفى !

ـ وهل سبق لنا ان تحدثنا في الجد ؟

ودخلنا قاعة الكوليزيه وانتحينا ركنا مبتعدين ء ضجة القاعة ، وجلسنا الى مائدة مخصصة لنفرين ، بعد ان طلبنا كوبين من عصير العنب ... واجهني مصطفى وهو يركز في وجهي نظرات حادة تحمل معنى غريبا عن شخصيته الساخرة المستهترة . وقال ، وهو يحيط خديه بكفيه المعتمدتين على المنضدة .

- أتريد ان ترى الخاوه ؟

واعيت الدهشة لساني عن الجواب لحظة .. ثم نطقت :

- اي خاوه ؟

- وهل يوجد في أيامنا نوعان من الخاوه ؟

ادركت الان فقط ان مصطفى فدائي ، من هؤلاء الفدائيين الذين طالما تقت الى لقاء واحد منهم .. ها هو الآن مصطفى .. صديقي ، ورفيق الصبا فدائي ، وهاهو ماثل امامي يحدق في بعينين ضاحكتين .. واحسست ان سعادة غريبة عني غمرت كياني كله .

- نعم يا مصطفى .. انت تعرف ان هذه هي امنيتي منذ شهرين ...

- وهذا هو الذي جعلني افاتحك الليلة ، لقد وضعك (الخاوه) تحت المراقبة مدة عشرين يوما ، وتاكدوا من رغبتك الصادقة في الانضمام ، وقد ارسلوني اليك . .

ولم اتمالك اعصابي فحاولت ان ارفع صوتي .. ان اعبر عن فرحتي، ان اصيح : ((عما قريب ساصير فدائيا)) . الا ان مصطفى لكزني في ساقي لكزة حادة وهو يقول :

- يجب ان تعرف ان مظهر الفدائي مناقض تماما لباطنه .. يجب ان توحي كل تصرفاته انه شخص سطحي ، ماجن وطائش ..

واجبته ضاحكا :

- وهذا ما كنت تبديه لي دائما ...

- لنتكلم في موضوعنا ، وكاننا نتحدث عن مغامرة غرامية ...

ثم اردف يقول وهو يبتسم :

- قبل الخاوة انضمامك ، ولكن بشرط ...

- وما هو هذا الشرط ؟

- بسيط .. ان كل فدائي يريد الانضمام ، يجب عليه ان يقوم بعملية يقرر بعد ذلك المجلس العسكري لقاعدة قسنطينة قبوله على ضوئها ، وتكليفه بمهمته على اساس طريقة ادائه لهذه العملية .

ثم سكت برهة وراح يقول وهو يومىء برأسه :

- هل أنت موافق ؟

- لا تسالني هذا السؤال ، يجب أن تعلم يا مصطفى انني مستعد أن احمل عشرة كيلو من المواد المتفجرة ، واتلاشى مع شظاياها ، وسط فرقة من الجيش الفرنسي . لقد خلق مني هذان الشهران من الانتظار ، طاقة رهيبة يا مصطفى !

فاجابني بابتسامة هادئة :

- هذه هي طريقة عمل الخاوه ...

*

ها أنذا اجلس الى مائدة من موائد بيت رقم (١٠) ... وزجاجة مشروب الكروش موضوعة امامي ، وخديجة البيضاوية تحدق في بعينين بريئتين .. لقد تغيرت نظرتي للمومس ، فبعد ان كنت انظر اليها كما انظر الى حيوان مسخر ، صرت اعاملها معاملة انسان ، واعتبر وجودها ناتجا عن اوضاع خلفها الاستعمار الفرنسي في بلدنا .. وان قصة وصول هذه المسكينة الى هنا تجسم بشاعة الاستعمار في بلدنا .. كانت ابنة عائلة مرموقة في مدينة (عن البيضاء) ، وهربت مع شاب احبته واغراها بالزواج ، ثم اوصلها الى هنا ، وجعلها توقع على عقد بيع نفسها ، بعد ان اوهمها ان العقد عقد زواج .. واخبرني مصطفى ان عددا منهن صرن فدائيات بعد ان وضحت الثورة لهن وضعيتهن ...

منذ عشر دقائق فقط ، صرت فدائيا في منظمة قسنطينة الثورية ، اما نوع العملية فهو اغتيال ((سي عمار)) . وسي عمار هذا اخطر ضابط في الشرطة الفرنسية ، على يده كان يعذب مواطنونا اشد انواع العذاب وحشية ، وبواسطته تخلصت السلطة الاستعمارية من عدد كبير من العناصر النظيفة في قسنطينة . والغريب في الامر ان معظم الشرطة العرب في الجهاز الاستعماري ، سرعان ما ادركوا الحقيقة ، وصاروا يعملون في الظاهر مع الادارة ، وفي الخفاء مع الجهاز الثوري ، ما عدا هذا الكلب ... وبواسطة هؤلاء وصلت للخاوه تقارير مفصلة عن جرائم ((سي عمار)) ووجهت له تهديدات الا انه استهزأ بها ، واستمر متماديا في طريقه . وانا اكثر من يعرف عن هذا الخائن : فالسبب الرئيسي الذي جعله يستمر في خدمة الاستعمار ، وقوعه تحت تاثير يهود قسنطينة ، الذين يسيطرون على جهاز الامن العام في المدينة .. اما طريقة اليهود في السيطرة على الاشخاص فهي بيهوديات شارع فرنسا ، فبحسانهم استطاعوا ان يسخروا ((سي عمار)) ضد اخوانه اكثر من كلاب الشرطة

رأى الخاوه ان هذه العملية ، لا يقدر عليها سوى ((خالد الصغير)) كما كانوا يسمونني في ذلك الوقت ، نظرا لقصر قامتي ، وسرعة حركتي ، فالحراسة شديدة على ((سي عمار)) وقد بذلت عدة محاولات لاغتياله خلال شهرين باءت كلها بالفشل .. ولم تبق للخاوة سوى محاولتهم عن طريقي .. نعم عن طريقي لان سي عمار عمي ، اي شقيق ابي ، والشبهة لا تحوم حولي نظرا لقرابتي من المحكوم عليه اولا ، ولا شتهاري بالبوهيمية ثانيا .

كانت الخطة ان اتعشى ليلة السبت في منزل ((سي عمار)) ، ثم أبقى مختفيا في المنزل الى ان ياتي المحكوم عليه ، فانفذ فيه الحكم ، واجرده من سلاحه ، وحافظة اوراقه ، ثم اغادر المنزل واسلم السلاح والمحفظة الى شابين يترقبانني في ناصية الشارع الذي يقع فيه منزل المحكوم عليه، بعد ان يكشفا عن هويتهما بكلمة السر ...

دخلت منزل عمي عمار ، على الساعة السابعة ، فوجدت زوجته (للا شريفه) فرحبت بي وسالتني عن والدتي واخواتي . والتف بي اطفال عمي الثلاثة ولما سالت (للا شريفه) عن صحة عمي بكت ، وراحت تقدم لي سلسلة من الشكاوى : كيف يضربها ويعامل ابناءها ببرود ، ولامبالاته ازاء اسرته ، وكيف توترت اعصابه فصار يثور لابسط الاشياء ، وكيف يمتد هذا التوتر الى نومه فيجعله يحلم احلاما مزعجة ، ويصرخ صرخات توقظها وتوقظ الاطفال من نومهم البرىء ، ثم ختمت شكاويها بقولها :

- حقا يا علي - ابني ، ان الحياة مع عمك اصبحت لا تطاق ، لقد اصبحت اتمنى الموت في كل لحظة .

كانت حفيظة الصغيرة جالسة في حضن امها ، وعندما شاهدت الدموع تنهمر من عينيها التفتت الي وقالت :

- عمي علي .. ان بابا ضرب ماما بالامس .. الله يعطيه ضربة ..

ثم احاطت عنق امها بذراعيها الصغيرتين ، وراحت تغمر وجهها بقبلاتها.

وفي الساعة الثامنة ، وقفت وحاولت الاستئذان ، الا ان (للا شريفة) اقسمت الا اخرج قبل ان اتعشى .. ثم قامت تعد المائدة .. وبعد ربع ساعة كنا ملتفين ، انا وهي والاطفال حول المائدة .. كانت يدي تمتد الى الطعام بطريقة آلية ، كنت ادفع باللقمة الى فمي دفعا لا استجابة الى شهية .. كنت افكر في هؤلاء الاطفال الذين سيصبحون ايتاما بعد بضع ساعات . ثم خطرت ببالي فكرة سخيفة : ((كيف اجرؤ على اكل ملح عمي واتآمر على قتله في نفس الوقت)) والملح في شريعتنا الاجتماعية قيد مقدس ، ومصيبة يصعب التخلص منها ، فاذا اراد شخص ان يامن

شر شخص اخر جعله ياكل من ملحه .. وكدت اتراجع وارجع الى (الخاوه) لاعتذر لهم عن القيام بالعملية ، لولا بروز فكرة اخرى في افق هواجسي : « وهل يعتبر طعام عمي ملحا .. لا ، انه خلاصة دماء العشرات من مواطنينا الشرفاء ، بأي ثمن اشترى عمي هذا اللحم ، وطحين هذا (الكسكسي) ؟ الم يشتره بنقود دفعت له كمقابل للتجسس على شعبنا وتعذيب ابطال جيشنا ؟ وهؤلاء الاطفال ، اهم افضل من عشرات اخرين صاروا ايتاما على يد أبيهم ؟ »

وفي الساعة العاشرة ، وبعد ان انتهينا من العشاء ، شربت فنجان القهوة واستاذنت ، وهمت زوجة عمي بتوديعي الى الباب ، فاقسمت الا تفعل ... الا انها قالت :

ــ ان اوامر عمك مشددة يا علي ابني ، ولا بد ان انزل لاتاكد من انغلاق الباب .

ــ وهل أنت احرص على حياة عمي مني يا (لالا شريفه)

ثم نزلت وفتحت الباب الخارجي واغلقته بشدة ارتجت لها جدران المنزل ، حتى يصل صدى انغلاقه إلى مسمع زوجة عمي ، ثم دخلت مخزن الحطب ، واختفيت وراء كيس من الفحم مستعينا بمصباح يد صغير . وبعد دقائق سمعت قبقاب زوجة عمي على درجات السلم وتمتماتها بآيات الكرسي ، فعلمت انها نزلت لتتاكد بنفسها من الباب .

يا لفظاعةهذا الظلام!لكاني اول مرة ادخل ركنا مظلما. لقد عرفت الزوايا المظلمة منذ طفولتي وما شعرت بخوف في يوم من الايام، بل انني كنت اتبارى دائما مع زملاء طفولتي في قطع درب ضيق مظلم في ساعة متأخرة من الليل ، وكنت دائما افوز بالرهان . أما الان ، وفي هذه السن الناضجة من شباب مضى كله تشردا ، فانني أتخيل أن تحت كل طبقة من طبقات ظلام مخزن عمي عمار ، تكمن عين شيطان تتربص بي .. وان في كل ركن من اركان هذا المخزن يختفي جان من نوع جنيات اساطير جدتي . كانت خرخشة الجرذان تجعل بدني يقشعر ، وعرقي يتصبب ، والغريب ان شعوري كان يدرك ان هذه جرذان ، وان علم الجنون لا اساس له من الصحة ، الا ان لا شعوري كان يتحدى الواقع ، ويثير في نفسي كل أنواع الهواجس الشيطانية .. لعل اقدامي على تنفيذ هذه العملية هو السبب الرئيسي في هذه الهواجس .. امن المعقول ان يقدم انسان على اغتيال اقرب الناس اليه ثم لا يتملكه شعور غريب ... ولعنت الاستعمار الذي خلق هذه الاوضاع .

وفي الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق سمعت صوت محرك جيب ، يتوقف امام باب منزل عمي ، فعلمت ان لحظة تنفيذ العملية حانت ، فوقفت وشددت قبضتي على مسدسي ، واحسست بان كل جزء من اجزاء جسمي يرتجف ، انه لامر رهيب ان يقدم الانسان على اغتيال عمه ... ثم سمعت كلاما عند الباب ، فقفزت من مخبئي ، والتصقت بالحائط في مكان يجعلني وراء مصراع الباب الذي سيفتحه عمي بعد ثوان. وفتح الباب وسمعت سي عمار يودع قائد الدورية المكلفة بحراسته ، ثم انطلقت السيارة تاركة وراءها صوتا مزعجا ... وتجاوز عمي عتبة الباب، ثم دفع المصراع وراءه ، وعندما هم بصعود السلم ضربته على أم رأسه بمقبض مسدسي ، فسقط فاقد الوعي ، وسحبت خنجرا من ساقي ، فذبحته من الوريد الى الوريد كما تذبح الشاة ... ثم جردته من مسدسه ورشاشته وحافظة اوراقه ، وفتحت الباب وسحبته ورائي ببطء.. ثم اختفيت في خضم ظلام شوارع الحي العربي بقسنطينة .

*

تركت حادثة اغتيال سي عمار أثرا سيئا في الدوائر الاستعمارية وكتبت الجرائد عنها في صفحاتها الاولى وبعناوين بارزة ، ولعل الذي ولد هذا الرعب كله في الدوائر البوليسية طريقة تنفيذ العملية ، الم توصل دورية بوليس « سي عمار » الى باب منزله ؟ الم تغادر عتبة الباب بعد ان تجاوزها القتيل ؟ وكما قال مامور القسم المركزي : « أظن ان هؤلاء الفدائيين يستعملون طاقية الاخفاء » .

وفي صبيحة اليوم التالي للعملية ، قابلت مصطفى في « الاكسلسيور» واخبرني وسط ابتسامته العريضة وقهقهاته المدوية ، أن المجلس العسكري لقاعدة المدينة اعجب بطريقة تنفيذ العملية ، وأنه عينني فدائيا من الدرجة الاولى ، وكيف طلب من أعضاء المجلس الحاقي بخليته ، وكيف وافق المجلس باغلبية الاصوات على هذا الطلب . ثم قال وهو يلكمني في كتفي اليسرى :

ــ هنيئا يا علي ... لقد اصبحت واحدا من الخاوه

ــ شكرا يا مصطفى .. لقد لعبت دور الصديق الوفي في قبولي.

ــ نسيت ان اخبرك.. ان المجلس العسكري قرر تسليم سلاح «سي عمار» لك.

وهزني هذا الخبر ، فسالته في لهفة :

ــ ومتى اتسلمه ...

وضحك مصطفى ثم قال :

ــ عندما تقدم على تنفيذ عملية ثانية ... ان الفدائي من الدرجة الاولى لا يحمل معه السلاح .. اذا تلقى امرا ، يذهب الى مكان العملية أعزل ، حيث يجد هناك شخصا مجهولا يسلمه السلاح ، وعند انتهائه من العملية ، يسلم هذا السلاح الى شخص اخر لا يعرفه ، ومفتاح التعارف دائما هو كلمة السر .

ثم راح مصطفى يحكي لي تفاصيل العمليات الفدائية السابقة التي هزت المدينة ... الا ان العملية التي هزتني تفاصيلها ، واقشعر بدني لطريقة تنفيذها هي حادثة ارهاب صاحبة بيت (٥٠) .. لقد اشتهرت المعلمة (زبيدة) بارادتها القوية ، كانت اكبر الشخصيات في الادارة الفرنسية ترهب جانبها . وكم من مرة الهبت بسوطها ظهر عمدة من العمد ، او بشاغا من البشاغوات ، وعندما اصدر (الخاوه) اوامرهم للشعب ، بمقاطعة كل البضائع التي تكون موردا للضرائب غير المباشرة كالتبغ والمشروبات الروحية ، رفضت المعلمة (زبيدة) تنفيذ هذا الامر ، واستهانت بكل التهديدات التي جاءتها من (الخاوه) بينما استجابت كل المعلمات للامر .

وفي يوم من ايام الشتاء القارصة تلقت المعلمة (زبيده) من (الخاوه) رسالة يخبرونها فيها بان قيادة الفدائيين قررت ما يلي : اولا : ان تكون هذه الرسالة من الخاوه اليها . ثانيا : فرضت عليها مخالفة قدرها مئتا الف فرنك لعدم تنفيذها لاوامر الثورة ... ثم ختم الخاوه الرسالة بهذه العبارة«سوف يأتيك مندوبنا على الساعة العشرةمساءلاستلام المبلغ».

واتصلت المعلمة زبيده بالقيادة الفرنسية ، وابلغتهم الرسالة . وارسلت في الحال دورية من البوليس لحراسة المعلمة ، ووقف شرطي عند باب منزل رقم (٥٠) مهمته تفتيش كل داخل .. ودخل الفدائي المكلف بتنفيذ العملية ، وفتشه الشرطي . وفي حوش المنزل وجد سائق سيارة المعلمة في انتظاره فسلمه مسدسا . وفي الساعة العاشرة الا خمس دقائق ذهبت احدى فتيات المنزل تبلغ المعلمة زبيده ان زبونا في الطابق الاول غرفة رقم ٦ يريد مقابلتها ... وصعدت المعلمة السلالم ودخلت الغرفة التي اغلق بابها وراءهما .. ولم تكد تخطو الى الكرسي الوثير حتى وجدت شابا ذا نظرات كنظرات نمر منفمسا في طياته ، يوجه اليها فوهة مسدسه الضخم وهو يقول لها :

ـ انا مندوب (الجماعة) يا معلمة (زبيدة) .. جئت لاستلام المبلغ المتفق عليه .. تستطيعين ان تصرخي ، الا ان طلقة حمراء ستنفذ الى قلبك قبل ان يتحرك رجال الشرطة من اماكنهم ، وقبل مغادرتي لهذه الغرفة ، فقد اتخذت الاحتياطات اللازمة .

وبدت الدهشة على وجه المعلمة زبيدة ... وتلعثم لسانها ... ثم لفظت كلمات متقطعة :

ـ انتظر ... يا ابني .. سوف آتي لك بالمبلغ

ـ دقي الجرس واطلبي من خازنتك محفظة نقودك ..

ووضعت المعلمة اصبعها على الجرس .. وسلمت المبلغ الى الفدائي وعندما هم بالخروج قال لها :

ـ خذي هذا المسدس .. وسلميه الى شاب ستجدينه غدا صباحا على الساعة العاشرة امام منزلك ، وهو لن يقابلك بعبارة التحية الصباحية وانما بكلمة (جرس) .. وانصحك ان تكسري الليلة كل زجاجات البيرة التي في منزلك ..

ثم وجه نحو صدرها سبابته وهو يقول :

ـ كلمة اخيرة ... ارجو ان تعلمي ان كلمة الله في السماء ، وكلمة الثوار في الارض .. الى اللقاء يا معلمة زبيدة .

وفي تلك الليلة كسرت المعلمة زبيدة كل زجاجات البيره ... واوقفت تعاملها مع شركات المشروبات الروحية .. واصبحت تطبق اوامر الخاوه بالدقة ...

وسألت مصطفى عن أعضاء خليتي ، فنظر الي في حدة ، والابتسامة لا تفارق وجهه :

ـ يا علي . ان الفدائي يجب ان يكون بعيدا كل البعد عن الفضول والثرثرة .. يجب ان يتكلم في كل شيء الا في خبايا التنظيم الثوري .. ان اعضاء خليتك مجهولون بالنسبة لك ، وانت مجهول بالنسبة اليهم ، يمكن ان يكون اقرب الناس اليك واحدا منهم ، ولكن لا يمكن ان تكتشف سره الا اذا جمعت بينكما عملية ، واقتضى تنفيذها احتكاكا مباشرا بينكما .. والحلقة الوحيدة التي تربط بين بعض الخلايا وبينك وبين اعضاء خليتك هو انا فحسب

وعجبت لامر هؤلاء الفدائيين الذين يعملون في نظام دقيق دون ان يعرف بعضهم البعض الاخر .. وافهمني مصطفى بعد ذلك : « ان هذا هو اسلم طريق للمحافظة على سرية نظامنا ، وهوية اعضاء خلايانا ، والفدائي العادي لا يعرف اكثر من اثنين ، وحتى هذان الاثنان لا يعرف هويتهما ، وانما يعرف انهما رقمان معينان لا اكثر ولا اقل ... ولو قدر لاحد الفدائيين ان يقع بين ايدي السلطات الفرنسية حيا ـ وهذا نادرا ما يقع ـ فان الرقمين اللذين لهما علاقة به يختفيان فترة تتكشف اثناءها بوح الفدائي بالسر او صموده ... فاذا كانت الاولى خرج الرقمان الى الجبال ، واذا كانت الثانية عادا الى عملهما وظهورهما في الاوساط العامة »

وتعجبت من امكانية بوح الفدائي بالسر فاجابني مصطفى :

ـ لم يحدث هذا ـ الى الان ـ الا ان الفدائي من لحم ودم ، وله ارادة معرضة للضعف تحت وسائل التعذيب الفظيعة .. وعلى كل فالثوري يجب ان يقرأ حساب كل احتمال ، ويحتاط له قبل وقوعه .

وسكت مصطفى لحظة دفع اثناءها حساب المشروبات ، وعندما التفت الي وجدني شاخصا في اللاشيء ، منفمسا في موجة من التفكير ، فبادرني بقوله:

ـ فيم تفكر يا علي؟

ـ منذ نفذت الحكم في عمي ـ يا مصطفى ـ وانا اعاني الامرين ، وهواجس رهيبة في نفسي ، لن انسى ابدا ذلك الشعور الذي تملكني وراء كيس الفحم في مخزن منزل عمي ... لقد استعرضت اولاد عمي الصغار وهم يرتمون في أحضاني ، ويغمرون وجهي بقبلاتهم البريئة ، ويعيبون علي عدم ترددي عليهم ، واستصحابهم الى السينما والمنصورة ... وهم لا يدرون ان هذا الذي يغمرونه الان بمشاعرهم البريئة سوف يجعلهم بعد لحظات ايتاما ...

وبلع علي ريقه وسحب لفافة تبغ من علبة رفيقه ثم استرسل في الكلام :

ـ صدقني يا مصطفى لقد كان الشعور فظيعا ، اقشعر له بدني ، ووقف لتحسسي له شعر رأسي ، وتصبب لسريانه في كياني عرقي... وكدت أنهار ... افتح الباب واهرب .. واعلن لكم انني اصغر من ان اكون فدائيا .. لولا خطور خاطرة اخرى افسدت مفعول هذا الشعور.

وساله مصطفى بتاثر :

ـ وما هي هذه الخاطرة ؟

ـ عشرات الاطفال الذين تيتموا على يد عمي عمار .

ـ سبقتني الى هذا يا علي ... يجب ان تعرف ان كل اعضاء المجلس العسكري لقاعدة المدينة مقدرون لتضحيتك العظيمة ، ولولا تقديرهم لك لما منحوك من اول يوم رتبة فدائي من الدرجة الاولى .. ولست انت وحدك من تملكه هذا الشعور ، بل ان كل الفدائيين مروا بهذه المرحلة من حياتهم العنيفة ... ان مصدر هذا النوع من الشعور يا على هو

كرهنا للقتل والدم والاغتيال . ولا يوجد انسان مجبول على حبه للسلام كالانسان العربي .

وتململ مصطفى في مكانه وراح يطلق كلماته حادة كشفرة الخنجر الذي نفذت به العملية :

ـ الا ان السلام في راينا نحن العرب الشرفاء ذو مفهوم نابع من بيئتنا، وليس هو مصدرا من الخارج ، ليس هو ذلك الذي تدعونا اليه فئة انسلخت من واقعنا ، وتجردت من معطيات الفترة التاريخية التي تجتازها امتنا ، ليس هو ذلك السلام الذي تدعونا اليه جماعة في صحافتها ، جماعة تدعي الانسانية ومناهضة الاستعمار وهي بريئة منهما ..

وحدق في مصطفى بعينين تتقدان شررا ثم استرسل :

ـ لا سلام في وطننا الا بعد تطهير دنيا العرب من الاستعمار والصهيونية ومن ذيولهما . ان السلام بالعربي الفصيح، معناه ان نمارسه نحن العرب كما يمارسه غيرنا من سكان العالم : فاغتيالك لسي عمار معناه في لغة السلام توفير حياة عشرات الجزائريين... ان كل يوم من ايام ثورتنا يمر يقربنا من تطهير الجزائر من الاستعمار ، وما تطهير الجزائر من الاستعمار سوى نشر السلام في هذا الجزء من دنيا العرب.. سلام من القتل والابادة والمرض والجوع .

وتوقف رفيقي لحظة ليبتلع ريقه ثم قال في هدوء :

ـ يجب ان تذهب الان لتنام قليلا يا علي فهذه الليلة تنتظرك لتساهم في تنفيذ عملية اخرى .

ـ اي عملية ؟

ـ نسف مركز الدائرة الاولى للشرطة .

*

مضى على انضمامي حتى الان احد عشر شهرا نفذت خلالها عشرين عملية بنجاح ، وحصلت على اعجاب كل رؤسائي ... واصبح اسمي المستعار « خالد الصغير » على كل لسان ، وقررت محافظة قسنطينة خمسة ملايين فرنك لمن يقبض على « خالد الصغير » حيا او ميتا ، دون نشر صورته طبعا ، لان المكتب الثاني الفرنسي عجز عجزا تاما عن معرفة ملامحه .. وبقيت اتجول في المدينة دون ان تحوم الشكوك حولي . وفي صبيحة هذا اليوم فقط كنت راكبا « ترام » حي منظر جميل ، فاذا بي اسمع حوارا يدور بين طالبتين عربيتين في « ثانوية الكدية »

ـ يا ناري على « خالد الصغير » ... لقد هز قسنطينة ، واصبح بعبع البوليس الفرنسي ... فحتى زميلاتنا الفرنسيات يتحدثن عنه. اتمنى لو اراه ثم اموت .

ـ اسكتي ... يمكن ان يكون « خالد الصغير » يستمع اليك الان ، ان هؤلاء الفدائيين (كالحيه) التي درسناها في كتاب الحيوان تتلون بلون المنطقة التي تعيش فيها .

ـ آه ... لو كان قريبا مني ، مصغيا لكلامي .

وارتسمت على فمي ابتسامة ، وانا اتصفح جريدة « لاديبيس » ، وكدت ان التفت الى هذه الانسة .. وابدي لها استعدادي لايصالها الى « خالد الصغير » ... الا ان مهمة الفدائي صعبة ... وتقديسه للاوامر لا يحد .

وعندما وقف « الترام » في ساحة الثغرة ، ركزت عيني لاشعوريا في وجهها قبل ان انزل ، كان وجها مستطيلا بارز الذقن ، اسمر البشرة ، وعيناها السوداوان الواسعتان باهدابهما الطويلة ذكرتني بعيون اولئك النائليات .. ورفعت نحوي عينيها الناطقتين بالذكاء والقوة : كل شيء فيها يشير الى صلاحيتها لان تكون فدائية .. وغادرت الترام وانا اردد في نفسي : « ان مهمة الفدائي صعبة يا آنستي .. لعل الحياة ستجمع بيننا فنلتقي صدفة بعد الاستقلال ، واتقدم اليك في اعتزاز وفخر مادا يدي نحوك ، قائلا لك : انا خالد الصغير يا آنسة ... » واضيف الى انتصاراتي ، نظرة اعجاب من عينيك العربيتين .

وخطرت ببالي فكرة سريعة : لماذا لا اخبر مصطفى بحوار الانستين ، واصف له ملامحهما ، علّه يحيل قضية دراستهما الى منظمة الفدائيات. اما امل معرفتها لهويتي ، فهو من المستحيلات حتى لو جمعت بيني وبينها عملية واحدة . يمكن ان تعرف انني احد الفدائيين العاديين .. اما ان تكتشف انني « خالد الصغير » فهذا من المستحيلات الالف ... ودخلت الزقاق الذي يقع فيه « مقهى الشرق » وانا اردد في نفسي : « ان مهمة الفدائي صعبة ... »

كلما دخلت « مقهى الشرق » تذكرت هدوءه المفرط ، ومناضده ذات اللون الصارخ وزهرياته ، وتخت السيد احمد القسنطني ، وموشحاته الاندلسية ... كان هذا المقهى ملتقى شباب العائلات القسنطينية : شباب البورجوازية القسنطينية حسب المصطلحات الحديثة .. كان هذا المقهى في ايامه ذا حركة دائمة ، لا ينقطع عنه الرواد ويندر لشخص جاءه متاخرا ان يجد به مقعدا خاليا ، وخاصة في ليالي الاحاد . كان الشباب القسنطيني ، بعد ان ياخذ حمامه الساخن ويرتدي بدلة الاحد ، يتجه الى مقهى الشرق ، وينتحي ركنا من اركانه يستمع للموشحات الاندلسية، وسط جو اندلسي ، كل ما فيه يوحي بحياة الاندلس المترفه الفارغة الجميلة .. وقبل الثورة كانت التسلية الوحيدة لقتل الفراغ ، عند الشباب ، وقبل الثورة كانت التسلية الوحيدة لقتل الفراغ ، عند عدد التاجر والمدارس . اما النوادي فهي معدومة . وبعد اول نوفمبر سنة ١٩٥٤ اغلق الكثيرون مقاهيهم ، وابقاها البعض الاخر اخلاصا للعادة فقط، لان مشكلة الفراغ حلت عند شباب المدينة الذي اختفى من شوارعها وساقه الواجب الى الجبال حيث يؤدي دوره التاريخي الخالد ، او ساقته ارتيابات السلطات الاستعمارية الى المعتقلات التي ضاقت بها رقعة القطر الجزائري او التهمته الرشاشات الفرنسية في حملات القمع والابادة

اما الان فان مقهى الشرق لم يحتفظ من ايامه المزدهرة الا بسواريه واقواسه وهدوئه . ودخلته فوجدته خاليا الا من بضعة شبان وشيوخ، انتشروا في قاعة المقهى الواسعة الضعيفة الاضاءة . وجلت ببصري برهة في اركانها الى ان عثرت على مصطفى وراء منصة التخت ـ سابقا ـ . كان مصطفى يجلس مع شابين رئيسي خليتين لا اعرف عنهما سوى ان اسميهما : صالح واسماعيل (والاسماء مستعارة بطبيعة الحال) . اما صالح فهو اسمر متين البنية ، عريض المنكبين ، يميل الى القصر نوعا ما ، مرح الملامح . واما اسماعيل فهو نحيف الجسم حاد القسمات ، في طباعه نوع من الانطوائية ...

سحبت كرسيا وجلست مع الاخوة الثلاثة ، وصفق مصطفى الى عامل المقهى ، فساله عن اسماء .. ثم طلب لنا اربعة فناجين قهوة وورقا ... وتقابلت مع مصطفى ، وتقابل صالح مع اسماعيل ، ورحنا نلعب(الرونده) كان لعبنا للورق عبارة عن تمويه ، عن تغطية للسبب الرئيسي لاجتماعنا وابتعادا به عيون المكتب الثاني الفرنسي.. لقد اجتمعنا لاعداد اخطر عملية عرفتها مدينتنا .. وتلاحظ خطورتها من مشاركة ثلاث خلايا في تنفيذها ، مع ان العادة المتبعة هي ان يوكل تنفيذ كل عملية الى خلية .. وبدا مصغى يتكلم وهو يخلط الورق :

ـ احمل لكم امرا من المجلس العسكري. وهذا الامر يتلخص في مهاجمة معسكر « سيدي راشد » والانتقام لضحايا رحبة الصوف من النساء والاطفال الذين حصدتهم رشاشات المظليين .

ونطق اسماعيل وهو يزم شفتيه ، ويسحب اوراقه الثلاثة :

ـ وهل من الحكمة ان تقوم الخلايا الثلاث بالعملية ؟

واجابه مصطفى ، وهو يحدق في اوراقه :

ـ نعم ... المفروض ان يهاجم المعسكر ثلاثة فدائيين انتحاريين ، حتى نضمن للخطة النجاح ، ونضمن تحطيم المعسكر بجنوده . وانتم تعلمون ان فقدان الخلية لثلاثة من اعضائها مرة واحدة ، معناه تلاشي الخلية ، ونحن نريد ان نبقى على تشكيلات الخلايات حتى نضمن تغلغل جهازنا في كل احياء المدينة .

وقال صالح وهو يرشمني بالخمسة .

ـ وكيف نختار الثلاثة ؟

ورشمه مصطفى خمسة ، وهو يقول :

ـ بالتطوع

واسقط سليمان « اللاز » وقال وهو يعقد حاجبيه :

ـ واذا تطوع اكثر من ثلاثة ؟

واجاب مصطفى باقتضاب :

ـ يترك امر الاختيار لرئيس الخلية .

واسقطت « الدوس » ، وقلت دون ان ارفع بصري عن فراش (الرونده)

ـ واذا كان رئيس الخلية ضمن المتطوعين ؟

واحسست بنظرات مصطفى الحادة تلهب وجهي ، ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة :

ـ انت تعرف ان الاوامر العليا لا تبيح لرئيس الخلية ان يقدم على عملية انتحارية ... فمن المصلحة الثورية ان تبقى .

واجبته بحدة :

ـ انا مصمم هذه المرة ... ولا توجد اية قوة على وجه الارض تقف امامي...

وزفر مصطفى زفرة مؤلمة ، ثم اكل (لاز) اسماعيل ، وهو يقول في استسلام :

ـ سوف ندرس القضية .

كانت العمليات التي قمت بها ـ حتى الان ـ عمليات فدائية فردية : رمي قنبلة يدوية على دورية فرنسية او على مركز للشرطة، اطلاق رصاص على ضابط فرنسي ... اغتيال عميل .. خطف جاسوس .. واصبحت اشعر برتابة مملة في تادية هذه العمليات ... اريد ان اخوض عالما آخر، ان اجرب مواهبي في نوع اخر من العمليات ، وكنت اتطوع دائما في مهاجمة المعسكرات ، ونظرا لصعوبة نجاة الفدائي في هذا النوع من العمليات ، فان القيادة كانت ترفض تطوعي . اولا : لانني صرت متخصصا في نوع معين من العمليات . ثانيا : لانني صرت رئيس خلية . اما الدافع الرئيسي الذي جعلني اصمم على التطوع ، واصر على قبولي في هذه المرة فهو ان اضرب مثلا للفدائيين بانه لا فرق بين رئيس خلية ، وفدائي من الدرجة الاولى ، وبين اي فدائي عادي امام الواجب . فاذا تقدم لعملية انتحارية « خالد الصغير » ووافقت القيادة على قبوله ، وقدر له ان يستشهد، فان هذا الحادث سيكون له مفعول المفجر في طاقةكل فدائي.

اما عن تخصصي في نوع معين من الاعمال الفدائية ، فقد تخرج على

ـ التتمة على الصفحة ٥٦ ـ

اشهر قصص الحب

تقدم « **دار القصة** » سلسلة اشهر القصص الغرامية العالمية من اروع ما كتب ويكتب في معظم لغات العالم ينقلها الى العربية نخبة من الادباء الموهوبين .

لغة سهلة شيقة فصيحة . يطالعها القاريء بدون مال او كلل . ترتاح نفسه اليها فينشط . ولقد اخترناها له من اشهر قصص الحب وامتعها . وهل في الحياة سلطان غير سلطان الحب . المرء رهين بهذا الحب ما دام ثمة عاطفة تجيش في كل صدر ويخفق بها كل قلب . وما دام هنالك انسية لا تنفك عن الدلال والاغراء بطرفها الكحيل وخصرها النحيل ... وبنانها المخضب وابتسامتها الحلوة ، الحلوة جدا .

كتابان هما باكورتا هذه السلسلة . فيهما كثير مما وعدنا ووصفنا ، فيهما حب كثير وواقعية اكثر وخيال قليل ..

يصدر قريبا جدا الكتابان الاولان :

مغامرات فتاة رعبوب

مذكرات سيدة ارستقراطية

توزيع « دار الثقافة »

بيروت ـ لبنان

احجزوا نسخكم من الان ،

واطلبوا فهرس دار الثقافة لعام ١٩٥٩ يرسل لكم مجانا

ص.ب ٥٤٣ بيروت ـ لبنان

تحت الجسر المعلق

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٢ ـ

يدي عشرات من الفدائيين الصغار الذين خلفوني وراءهم . ومنذ يومين فقط استدرج واحد من هؤلاء ضابطا فرنسيا ، ثم غرز خنجره في قلبه ، وسار في الطريق يدخن عقب لفافة في هدوء عجيب ، وقف امامه الفدائيون المكلفون بحراسته مشدوهين .

لقد اطلق على هذا الفدائي اسم « خالد الصغير » رقم «٢» . اما انا فقد ابدلت رقم «٢» برقم «١» . وكم من مرة دمعت عيناي وانا استمع لرواية حوادث من هذا النوع يحققها تلاميذي . انها نشوة قل ان يوجد مدرس على وجه الارض تحسس لذتها كما تحسستها انا ، نشوة مدرس يرى مواهبه من الخارج ، مرتسمة امامه في قالب من التطور المبدع ... ويبدو ان القيادة اقتنعت بوجهة نظري هذه ..

*

يقع المعسكر الفرنسي خلف جسر « سيدي راشد » في حافة وادي الرمال ، ومهمته حراسة الثكنة ومحطة « البنزين » ، ومراقبة طريق السواح المار تحت جسور المدينة . والمعلومات التي حصل عليها قلم المخابرات التابع لمنظمتنا الفدائية ، تدل على ان المعسكر يحوي سبعين جنديا من جنود فرقة المظلات تحت قيادة كابتن فرنسي مشهور بفظائعه في المدينة ... وتحدد ضرب خيامه ، ومكان خيمة القيادة ، ونقطة الحارس ، ثم الاخبار ـ وهذا مهم ـ عن ساعة نوم المعسكر ولحظة تبديل الحارس وكلمة السر في هذه الليلة .

تسللنا ثلاثتنا محملين بقنابل يدوية ، وبنادق رشاشة ومسدسات وخناجر ، عبر خط السواح من الحقول الموجودة قرب حي باردو على الساعة التاسعة مساء ، واشرفنا على المعسكر في الساعة العاشرة والنصف، وعندما صرنا على مسافة مئة متر من المعسكر اكملنا المسافة زحفا ، ووصلنا الى مكان الحارس وهو عبارة عن حاجز من الاسمنت المسلح ، تطل من حافته جعبة مدفع رشاش من نوع (اوتشكيس) ، وتحاشينا المرور امام الحاجز ، وعندما وصلنا الى نقطة وراءه كان لم يبق على موعد تبديل الحارس سوى سبع دقائق ، وتوقفنا نحن ، وزحف واحد من رفيقي ـ وكان طويل القامة مرتديا زي رجال المظلات ـ في اتجاه احدى خيمتي الجنود ، ثم وقف وسار بخطوات ثابتة نحو مدخل السياج. وسمعنا صوتا يقول وراء السياج : « من ؟.. » وصوت رفيقنا يرد عليه : « انا ... المصعد » .

ثم سمعنا طقطقة اقدام تشارك في تادية التحية ، ثم شاهدنا جنديا يخرج من وراء السياج ثم يهوي الى الارض عند قدمي رفيقنا الذي اجهز عليه بخنجره في الحال . واتجه كل منا الى خيمة من الخيام الثلاث ، وكانت خيمة القيادة من نصيبي. وارتمى كل منا عند مدخل الخيمة ، ثم اشعلنا فتيل الالغام الثلاثة ورميناها داخل الخيام ، واعقبناها بثلاث قنابل حارقة . وانفجرت القنابل مرسلة دويا تزلزلت له جنبات الوادي الصخرية ثم ارتفعت ثلاثة السنة من اللهب في الفضاء فبددت طبقات الظلام . وعندما بدا بعض جنود المعسكر يغادرون خيامهم مذعورين والدم ينزف من اجسامهم اطرناهم بقنابلنا اليدوية . ورأيت قائد المعسكر يهوي تحت شظايا القنابل ، فلم اكتف بذلك ، وزحفت نحوه ثم قرفت في رأسه اربع طلقات من مسدسي الآلي.

وسكن كل شيء في المعسكر ، وتوقفت الحياة في نفس كل جنوده ... ولم يعد يسمع سوى حفيف اللهب .. وغادرنا المعسكر ، ولم نكد نعدو عشرين خطوة نحو جوف الوادي حتى انطلق صوت صفارة الخطر يملأ ارجاء المدينة عويلا، ويصطدم بجوف الوادي فتردد صداه تجاويف الصخور في سلسلة من الموجات الصوتية.

ونزلت مع رفيقي ، وافترقنا بعد ان ودع كل منا صاحبه ، وطلب له حظا سعيدا ، ثم سلكت طريقي عبر صخور جانب الوادي جاعلا منفذ باب القنطرة مقصدي ، متحاشيا الاقتراب من طريق السواح ... ثم صوبت الانوار الكاشفة نحو الوادي فبددت ظلامه واحالت ليله نهارا ، ويبدو ان صديقي قد اكتشفتهما اعين جنود الاستعمار ، فصوبت اليهما فوهات مدافع رشاشة من طراز (٣٠) واوتشكيس ، وراحت تطلق رصاصها بعربدة، وارتطم الرصاص بصخور وادي الرمال الصلبة ، وضخم الوادي اصوات الطلقات وابرزها في قوالب شبيهة بقوالب اصوات مدافع الميدان... يا لعظمة وادي الرمال ! انه يجسم كل شيء ويحيل كل صوت مهما كان ضعيفا الى دوي جبار ...

وصعدت جانب الوادي في خفة متسللا وراء الصخور : كان دافع المحافظة على الحياة يدفعني تلقائيا الى اتخاذ كل الوسائل الى النجاة من رصاص الفرنسيين ، لانني اومن كما يؤمن اي جزائري ان الثورة في حاجة الى كل جزائري ، وخاصة اذا كان ثائرا ، وكما قال احد قادتنا : « نحن ثرنا لا لنموت وانما لنحيا ، فموتنا حياة ... ان كل فدائي يستشهد سيوفر باستشهاده عشرات الانفس العربية، وحياة افضل لشعب باسره».

ثم تطرق الى مسمعي صوت يلفظ عبارة : « يسقط الاستعمار ... تحيا الجزائر » .. وطغى على صوت صفارة الخطر ، ورصاص المدافع الرشاشة ، وراح يشق عنان السماء في كبرياء. وصفق له الوادي بجنباته الصخرية ، وسلمه في سلسلة من الموجات الصوتية المتتابعة في اعماقه الى الابد الخالد ... وادركت ان احد رفيقي قد استشهد .. ولم تكد تمضي بضع دقائق على انطلاق هذا الصوت حتى سمعت ستة انفجارات ضخمة متقطعة في المدينة ، ثم السنة من اللهب الاحمر تصعد في الفضاء ناحية ثكنة القصبة ، ففهمت ان (الخاوه) دمروا سيارات النجدة الفرنسية.

وصعدت في الوادي متجاوزا الصخور ، انني الان لا اقاوم جيش العدو ، وانما اقاوم عقبة الوادي ، فتحاشى لحظ السواح جعل عملية سيري شاقة : كنت اقفز من صخرة الى صخرة ، وازحف امتارا على صخر املس ، واستعين بشجيرات برية نثرتها الطبيعة هنا وهناك في الفجوات بين هياكل الصخور الجبارة . دميت يداي وتمزقت ملابسي ولا زلت اقاوم . ثم سمعت صوتا اخر شبيها بالاول ، الا انه اشد منه حدة ، تمازجه نبرة حاسمة ، فعلمت ان رفيقي الثاني قد استشهد ولفظ عبارة الاستشهاد بطريقة عبرت عن تقاطيع وجهه الحادة .

وقضيت اربع ساعات في التسلق ، وانقطع نباح المدافع الرشاشة الفرنسية ، ولم يبق سوى اشعة الانوار الكاشفة تلعق جنبات الوادي . ثم سمعت صوت طائرة عمودية تقترب من الوادي ، ثم شاهدت شبحها يسف على الصخور وتقترب من اسفله . انهم يبحثون عني ، وارتميت في شقة بين كتلتين صخريتين ، وانا اضغط على اسناني واقول : « لن اقع بين ايديكم ايها الاوغاد »

لا بد وان قوات الفرقة الاجنبية قد حاصرت الوادي من كل مكان ووصفت سدودا من جنودها امام كل منفذ ، وصممت على الخروج قبل طلوع الفجر ، عن طريق منفذ باب القنطرة ، انها مغامرة ولكنها اقرب الى الخلاص ...

وصعدت في جانب الوادي ، وقد الصق العرق ملابسي بسمي ،وغمر الجروح التي في ذراعي ورجلي فاحرقها باملاحه ، ولم تبق من ثيابي سوى اسمال ، ولا زلت اشعر بقوة خارقة ... والتفت لاشاهد على ضوء الانوار الكاشفة المسافة التي قطعتها متجاوزا اهوال الطبيعة . وتساءلت هل انا الذي قطع هذه الكتل الصخرية ، وهذه الاخاديد التي فغرت افواها شبيهة بافواه ثعابين افريقيا التي تستطيع ابتلاع جسم انسان كما هو . هل انا هو الذي تسلق هذا الجدار الصخري الفظيع ، انني لا اصدق عيني! نعم انا الذي فعلت هذا ولا زلت أتحسس في نفسي قوة تمكنني من الوصول الى قمة شيليا بجبال اوراس ، ما سر هذه القوة وهذا النضال العنيد ؟ انه الايمان ... الايمان بالله وباليوم الافضل المنشود ... لقد اكسبنا نحن المجاهدين التزامنا لقضية الجماهير قوة هذه الجماهير نفسها ، واصبح الفرد منا يؤدي عمل جماعة باسرها .. الم تهتز قاعدة كاملة بطيرانها وبوليسها وجنودها المحترفين ومدفعيتها من اجل ثلاثة فدائيين ؟ كانت صفارة الخطر تطلق في الحرب العالمية الثانية من اجل سرب طائرات المانية .. اما في ايامنا فانها تطلق من اجل فدائي معزول.. .. كنت وانا اقطع صخور وادي الرمال احس بان الكون كله بكواكبه ونجومه وشهبه ووديانه وبشره يحارب معي، لانني اؤمن كما يؤمن اي مجاهد اننا نناضل من اجل الحق، من اجل مثل .. من اجل مبادىء تقرهاشرائع السماء والارض،وتعمل من اجلها الملايين في مختلف انحاء العالم.

ووصلت الطريق زحفا ، ثم وقفت وجريت على وجه الارض متجها نحو عربات السكة الحديدية ، وخطتي ان اسير من القضبان الى النفق الذي يسلمني الى طريق سكيكدة المطل على الحامة ... وما كدت اقترب من السياج المضروب حول القضبان حتى انطلقت الى مسمعي اصوات من عدة نواح بعبارة « قف ... » ان المقاومة غير مجدية في هذه الحالة، فجنود الدورية مختفون . ولو حاولت ان احرك رشاشتي لقذفوني في الحال ، وكرهت ان اموت دون ان آخذ بنصيبي من قاتلي . ثم انطلق صوت يقول : « ارفع يديك .. » ورفعت يدي،ثم شاهدت خمسة اشباح تخرج من مخابئها وتتجه نحوي وفوهات رشاشاتها (الفيكرس) مصوبة الى رأسي وصدري وظهري . وبعد ان جردوني من سلاحين قيدوني ثم ساقوني الى مركز المظليين.

*

مضى علي حتى الان ست ساعات في مركز فرقة المظلات ، وصممت على الا امر بمرحلة التعذيب ، وان ابذل آخر محاولة تمكنني من احد امرين : اما الفرار ، واما الاستشهاد . انني لا اريد ان اموت عدة ميتات ... واخبرت المظليين عن وجود موعد معي اليوم على الساعة الثالثة مساء بجبل الوحش مع مجلس اركان حرب المنطقة . وابديت استعدادي لتوصيلهم الى مكان الموعد ، وهو مكان خطير اذا وجد فيه الثوار فلا بد وان يكونوا متحصنين يملكون زمام المبادرة ويتحكمون في المعركة ، وسال ضباط فرقة المظليين لسماع مجلس اركان حرب المنطقة ...

خرج معي ستون جنديا في ثلاث طائرات عمودية ، نقلتنا الى اقرب مركز عسكري من المكان المقصود ، ثم اكملنا المسافة مشيا على الاقدام. ونسيت انني مقبل على ادق لحظة في حياتي، ولم اتذكر سوى كيفية تنبيه الخاوه لوجود القوة الفرنسية ، الامر الذي أثار انتباه ملازم فرنسي فصاح مرة وهو يشدني من كتفي :

ـ يا ثعلب .. لم اصدق حرفا واحدا من كلامك .. كل هذا اختلاق وخطة جهنمية تنوي اقحامنا فيها .. لماذا تسلك بنا المرتفعات ؟ لماذا لا تسلك الشعاب ؟

واجبته في هدوء :

ـ انني من الفدائيين يا حضرة الملازم .. والفدائي متخصص في المدن ، انه يجهل الجبال . والمكان المقصود رأيته مرة واحدة ولا استطيع الوصول اليه الا اذا اتبعت نفس الخطوات التي قادتني من قبل ..

ـ سوف نرى يا ثعلب .. لكن ثق تماما ان نجاتك مستحيلة ، اذا حاولت الفرار فان افواه رشاشات جنودي ستلتهمك قبل ان تفلت .

كان المكان الذي سقت القوة الفرنسية اليه يشرف على منحدر تكسوه أعشاب ، يؤدي الى شعب . وقررت ان القي بنفسي أرضا واتدحرج الى قاع الوادي ، ثم اختفي عن اعينهم .

حانت اللحظة الحاسمة ... ولم تبق سوى بضع خطوات على نقطة انطلاق خطتي . ورفعت عيني الى جانب الوادي المواجه لي ، المكسو بغابة كثيفة ، وابتسمت .. ابتسمت للخاوه لانني اومن بان اعينهم لا تغفو وبانهم يراقبون خطواتي : : خطوة ... خطوة . « سوف اوصلهم الى ايديكم ايها الاخوة .. يمكن ان استشهد على ايديهم .. لكن بعد ان يكونوا قد وقعوا في كمينكم وجردت معي ستين جنديا وضابطا » .

والقيت بنفسي ، وقبل ان اصطدم بالارض احسست بسهام حادة ساخنة تحترق ظهري .. ثم سمعت طلقات مدافع رشاشة توجه الى جنود الاستعمار ورائي من اربع جهات . فادركت ان الخاوه ضربوا ضربتهم فطغى علي شعور الجندي الذي عزل عن فرقته ، ثم فجاة فتح عينيه ليجد نفسه محاطا من كل ناحية برفاقه ، واختلست اخر لحظة من الحياة لاصيح فيها بصوت صببت فيه خلاصة اثنين وعشرين ربيعا .

ـ عاشت الجزائر .. انا خالد الصغير ..

ورددت جنبات الوادي صيحتي ، وتمنيت لو ان عيون فتاة « ترام منظر جميل » ، ذات الاهداب الطويلة الشبيهة باهداب النائليات ... نظرت الي في هذه اللحظة بدهشة ... .

عثمان سعدي

تنتظرها الفتيات..
ينتظرها الشباب..
ينتظرها الكهول..
ونقدمها اليوم للجميع..
شيء في صدري
آخر ما أنتجته المطابع لكاتب القصة الشهير
إحسان عبد القدوس
منشورات مكتبة المعارف في بيروت
٧٢٥ صفحة ورق أبيض فاخر مزينة بالرسوم
مع الباعة وفي المكتبات الشهيرة - الثمن ٨٠ قرشا